

في تلك الفترة يتعرف دوستوفسكي إلى زوجته الأولى (إيسايفا) ويتزوجها، وهي امرأة مريضة، كائن أشبه بالمرأة، تزوجها دونما حب، فقط تلبية لنداء الروح ورغبتها في اجتماع روحيين في آن واحد أو لحظة واحدة، وتلبية لمشاعر البحث عن مصير مشترك مع آخر له الدوافع نفسها، والأمراض نفسها، والمخاوف نفسها.

لم يكن هناك ما هو أقسى وأبشع من الحياة التي عاشها دوستوفسكي في سيبيريا فلقد كان ظلاً أو شبحاً بين أشباح وروحاً سامية تصطرع داخل جسد منك متعب لن يشفى من علله أبداً، تلك القسوة، ومشهديات الإذلال والإهانة التي لحقت بدوستوفسكي سنظلّ موضوع كتابته في الكثير من أعماله، كما سنظل تلك الأشباح البشرية المعطوبة التي عاش معها في المنفى شخصيات إمداد للكثير من رواياته، بل إن الطفولة الشائهة والمشتهاة معاً التي صورها دوستوفسكي في سائر أعماله كلها كانت منتوجاً لفترتين اثنتين، الأولى: فترة طفولته القاسية وآمالها ورغباتها التي لم تتحقق، والثانية: الفترة الزمنية التي عاشها في المنفى، ورويته لمشهديات الطفولة البائسة للأطفال الذين كانوا برفقة أهلهم في منافي سيبيريا إذ ما من شيء في حيويته الطبيعية، الحياة ليست كالحياة، لا شيء سوى القسوة واليباس والخشونة والجلافة الروسية المميزة في ذلك المكان الموحش الموسوم بعالم الأموات أو عالم الموت، وقد صارت المقابر أكثر اتساعاً من المدائن وأمكنة العمران.

في تلك الفترة كان دوستوفسكي يكتب دون أن ينشر سطرأ واحداً لأن النشر كان ممنوعاً ومحظوراً بشدة، ولكنه ما إن اجتاز نهاية السنوات العشر حتى طلع على الناس بكتابه (ذكريات من منزل الموتى) الذي محابه نسيان الناس له، فأعاده أديباً معروفاً ليس في بطرسبرغ وحسب، وإنما في جميع أنحاء روسيا، كما أنه كتب رواية (مذلون ومهانون) التي اشتملت على الكثير من الإشارات الصريحة والواضحة إلى زمن المنفى وقسوة الحياة وبشاعتها هناك. أنثذ بدت الحياة كما لو أنها ابتسمت له فجأة فأسس بالتعاون مع أخيه ميخائيل مجلة (الزمان) التي كان يحرر صفحاتها جميعاً، أي يكتب جميع أبوابها، باستثناء ما كان يتفق الأخوان على نشره للأدباء؛ خصوصاً الروايات المسلسلة التي كان نشرها شائعاً في تلك الأيام، وقد ظهرت مواهب دوستوفسكي في هذه المجلة وتجلت، فبات له قراء كثر، بل إنه صار يتحدث باسم الشباب الروسي، يدافع عن القيم الروسية، وعن التراث الروسي، ويحارب النزعات التخريبية، ومحاولات